الأهرام

المصدر : الوسط

التاريخ : ١٩ يونية ٢٠٠٠

سورية والدور والمستقبل

«كيف تستطيع سورية أن تقول لا للولايات المتحدة وهو ما لا تستطيعه روسيا؟ فالأخيرة، على رغم اضطرابها، دولة كبرى تنام على ترسانة نووية. وعلى رغم صعوباتها الاقتصادية فانها تملك موارد هائلة. ماذا تملك سورية في المقابل؟ خسرت حليفها الكبير ومصدر سلاحها. و«التوازن الاستراتيجي» مع اسرائيل لم يعد ممكناً أو وارداً. ياسر عرفات يفاوض من غزة. والسلام قائم بين اسرائيل وكل من مصر والأردن. الاقتصاد السوري أوضاعه معروفة والسنوات العشر الماضية، وهي حاسمة، ضاعت من دون تعويض ما فات. سورية تحتاج الى التحديث والاستثمارات والتكنولوجيا وفتح النوافذ. وعلى رغم ذلك تتصرف سورية وتفاوض منتزعة لنفسها دوراً أكبر من دورها الطبيعي وحجماً أكبر من حجمها الحقيقي. فما هو سر سورية؟».

وأضاف: «ألم يكن أفضل للأسد ابداء مرونة في موضوع أشبار قليلة قرب بحيرة طبريا والاندماج في النظام الدولي الجديد والافادة من المساعدات والاستثمارات وضمان انتقال السلطة لاحقاً في اجواء من الأمل بالرخاء؟».

كان الصحافي الأميركي يتساءل بعد نحو ساعة من انتهاء القمة الأميركية – السورية الأخيرة في جنيف وبعدما شاع ان المحادثات لم تسفر عن أي اختراق، بل انتهت في اجواء من سوء التفاهم الناجم عن سوء فهم أميركي لأهمية الأشبار في وجدان الأسد والسوريين معاً. والواقع ان الصحافي كان يعبر عن خيبة الجانب الأميركي الذي كان يتطلع الى انجاز مدو يحجز لكلينتون مكانه في التاريخ كصانع سلام ويحجز لحزبه اقامة جديدة في البيت الأبيض.

استوقفتني في تلك الساعة المقارنة بين روسيا وسورية. وتذكرت مشهداً في موسكو يصعب أن يغادر الذاكرة. كان البائع يصرخ في شارع اربات وأمامه بزات عسكرية. وحين سألت الزميل الذي يتقن الروسية اجاب: عرف انك سائح وهو يعرض عليك بزة كولونيل في «الجيش الأحمر» مع الشارات والأوسمة بـ٥٢ دولاراً. هزني المشهد وتحول روسيا لاحقاً الى متسول على أبواب الغرب، فقد نجحت الولايات المتحدة في إذلال قيصر الكرملين وبلاده. وبعد كلام الصحافي الأميركي، وعلى رغم ما في المقارنة من مفارقات، ادركت ان ما جنب سورية مصير روسيا هو السر الذي يفتش عنه الصحافي الأميركي واسم هذا السر حافظ الأسد.

انه أسلوب حافظ الأسد. فالشاب الذي التحق بالكلية الحربية في منتصف القرن العشرين كان يحمل في وجدانه غضباً عارماً وحلماً كبيراً. وخلال ما يقارب العقدين تصاعد الغضب وازداد الحلم توهجاً. هاله أن تهتز سورية على خط الزلازل الذي ارتسم بعد قيام الدولة العبرية. آلمه ان يرى بلاده تبدل اسماء الحكام ولا تبدل واقعها. آلمه أن يتنازع الآخرون على زعامة المنطقة وعلى الحاق سورية بهذا الفلك أو ذاك. وآلمه استمرار الاضطراب في الداخل وتعاقب البيانات الرقم واحد على الاذاعة فيما تزداد اللقمة صعوبة وصورة سورية ضموراً. كان الاسد يلتفت الى الواقع ويرجع حزيناً ويلتفت الى التاريخ فيرجع مشحوناً بالأمل. وكان عليه ان يصارع في الحزب والجيش وأن يتسلح دائماً بالحزم والفطنة وبالطموح والواقعية وأن يجري الحسابات الدقيقة. كانت عين الأسد على حال سورية ومشاكلها وعينه على حال الأمة ومواجعها وجاء جرح الجولان ليحفر عميقاً وليسرّع قرار الانقاذ.

في ١٩٧٠ حانت ساعة الأسد. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد سورية ساحة للآخرين أو ملعباً لنزاعاتهم واختراقاتهم، فمصير سورية بات يصنع في دمشق، والبلد الذي كان يهتز على خط الزلازل صار اللاعب الأكثر ثباتاً عليه. هكذا ولد الزعيم القوي وأيقظ مكامن القوة في شعبه وبلده. وهكذا صارت سورية المحاربة والمفاوضة رقماً صعباً ومعبراً الزامياً لجهود السلام الشامل. رباطة جأش وصلابة في مواسم المواجهة ومرونة لا تفتح باب التنازل في التفاوض. وقدرة استثنائية على قراءة التحولات الدولية مكنتها من تجنب الخسائر أو الانهيارات أو انحسار الدور. وكان الأسد يفاوض كمن لم يخسر بعض أوراقه معوضاً بهالته وتماسك بلده ما ضاع من الأوراق. هذا ما قاله محبوه ومؤيدوه وهم كثر وما اعترف به خصومه وهم ليسوا قلائل.

البلدان العريقة لا تسقط في الامتحان، القامات التاريخية تحصنها قبل حلوله. هكذا ودعت سورية دامعة العينين حافظ الاسد الذي أنجز لها الكثير، وتخطت حزنها الكبير مبايعة بشار الاسد ومنتظرة منه الكثير. شيعت مهندس الدور الاستثنائي المسكون بالتاريخ وبايعت رجل الاستقرار والتغيير المسكون بالمستقبل ■

غسان شربل

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية